لماذا تدهورت أخلاقنا

كثير من مشاكلنا الحياتية اليومية نستطيع ردها إلى التدهور الأخلاقي الشديد الذي أصاب بنيتنا الاجتماعية بقوة فى العقود الأخيرة وجعل حياتنا صعبة للغاية , إذ ترسبت فى النفوس على مدى سنوات الفساد والتجريف مجموعة من القيم السلبية والأخلاق الرديئة منها على سبيل المثال : الكذب والمراوغة والاحتيال والغش والنفاق والفهلوة والانتهازية والأنانية وعدم إتقان العمل والتهرب من المسئولية وعدم احترام الوقت وخلف الوعد وخيانة الأمانة والكسل واللامبالاة والعشوائية والقبح فى القول والفعل والعنف وعدم احترام حقوق الآخر والاستهانة بالنفس البشرية وإهدار قيم النظافة والنظام والجمال . هذه التركيبة الأخلاقية السلبية صارت تهدد أمننا النفسي وتهدد مستقبلنا , وهي للأسف فى حالة انحدار مستمر لأنه حتى الآن لا توجد جهود حقيقية موجهة نحو التشخيص والعلاج مع أن هذه المشكلة الأخلاقية تعصف بأي جهود تنموية فى أي مجال من المجالات .

أ.د. محمد المهدى
استشارى الطب النفسى
رئيس قسم الطب النفسى
جامعة الأزهر - فرع دمياط

وللدخول قليلا فى عمق المشكلة نتساءل ماهي مصادر الأخلاق ؟ ... وكيف اضطربت أو تلوثت هذه المصادر لدينا ؟ .. وكيف نوقف هذا الاضطراب وذاك التلوث حتى نستعيد بنيتنا الأخلاقية السليمة ؟ .

تتلخص مصادر الأخلاق فى التالي:

١ – **العقل :** فحين يتمتع الإنسان بعقل سليم يحكم على الأمور حكما متوازنا وموضوعيا وهذا يستتبعه أخلاق متوازنة وإيجابية ومتصالحة مع الآخر ومع الحياة .

٢ – **العلم :** إذ من الملاحظ أن ثمة علاقة موجبة بين مستوى العلم (الحقيقي الأصيل) لدى الشخص وبين أخلاقه , والعكس صحيح , إذ كلما تفشى الجهل ساءت الأخلاق وتدنى الإنسان إلى مراتب غاية فى الانحطاط .

ولكن يعيب الأخلاق الناتجة عن العقل والعلم أنها تكون أخلاقا نسبية ومتغيرة بمعنى أن العقل والعلم قد يجدان اتباع أخلاق معينة فى بيئة خاصة وفى ظروف بعينها ينتج عنها مكاسب فتنشط تلك الأخلاق , أما إذا كانت البيئة والظروف مختلفة أو الحسابات نفسها مختلفة فقد ترتد النفس عن أخلاقها وتتبع غيرها بحثا عن المكاسب والمصالح , وهو مانسميه بنسبية الأخلاق , أو الأخلاق النفعية .

٣ – **الدين (الصحيح الأصيل) :** وهو مصدر الأخلاق المطلقة التي لا ترتبط بمنافع أو مكاسب ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأشخاص , لأن الأخلاق فى الدين قيمة فى ذاتها وهي مرتبطة بالحقيقة الإيمانية التي تجعل الإنسان محبا لله وللرسل وللمخلوقات وللكون , وينطلق من هذه الحالة المحبة منظومة من الأخلاق العالية , وممارسة هذه المنظومة الخلقية فى الدين تعتبر نوعا من التعبد فى حد ذاتها. والنصوص الدينية فى هذا الأمر لاتعد ولاتحصى نذكر منها : قوله تعالى فى القرآن «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».. وقوله تعالى «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر»...وقول رسوله محمد صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .. وقوله صلى الله عليه وسلم « أقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» .. وقول السيد المسيح عليه السلام « .. كل شجرة صالحة تثمر ثمرا جيدا, والشجرة الفاسدة تثمر ثمرا رديا , ولاشجرة فاسدة تثمر ثمرا جيدا . كل شجرة لا تثمر ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار. فمن ثمارهم تعرفونهم ..« .

وإذا كان التدين الصحيح ينتج أخلاقا راقية فإن التدين المشوه والمغشوش ينتج أخلاقا غاية فى السوء تتستر تحت رداء الدين.

٤ – **القانون :** فحين يطبق القانون بشكل صحيح ومستمر وعادل بلا استثناءات أو محاباة فإن مجموعات من الأخلاق والقيم والمعايير تترسخ فى المجتمع وتصبح مع الوقت سلوكا تلقائيا إذ تتم برمجة العقل على احترام مواعيد العمل وإشارات المرور وحقوق الآخرين لا شئ إلا لأن التجارب السابقة أثبتت للشخص أن المخالفة لها تبعات مؤلمة والنفس بطبيعتها تتجنب مصادر الألم .

٥ – **التقدير الاجتماعي :** فالمجتمعات السوية تعلي من قيمة الصدق والأمانة والمحافظة على المواعيد والوفاء بالوعد وإتقان العمل والنظافة والنظام والجمال , بينما المجتمعات المضطربة والمتخلفة تضطرب لديها مسألة التقدير فربما تنظر إلى الكذب على أنه ذكاء اجتماعي وتنظر إلى الصدق على أنه سذاجة وتنظر إلى الفهلوة على أنها شطارة ومهارة وتنظر إلى النظافة والجمال والنظام على أنها مسائل رفاهية وكمالية لا تستحق الاهتمام . وبناء على تقدير المجتمع للمعايير والقيم الأخلاقية يتم تعزيز وتدعيم بعضها وإضعاف البعض الآخر فتتشكل الصورة النهائية للأخلاق طبقا لذلك .

٦ – **الضمير الشخصي :** وهو بوصلة شخصية توجه الشخص يمينا أو يسارا بناء على ما ترسخ فى هذا الضمير من قيم عبر مراحل العمر المختلفة من خلال التفاعل مع الأبوين ثم الأسرة ثم المدرسة ثم الأصدقاء ثم المجتمع .

٧ – **الضمير العام :** وهو «مانيفستو» عام يتفق عليه كل مجتمع حول مايصح ومالا يصح وماهو مقبول وماهو مستهجن , وهو جماع للثقافة والدين والعادات والتقاليد .

ويبقى السؤال : كيف نستعيد بنيتنا الأخلاقية السليمة ؟

ولكي نبدأ الرد على هذا السؤال لابد أن نتأكد من قيمة وأهمية الأخلاق فى حياتنا إذ يعتقد البعض أن الأخلاق أصبحت ترفا تاريخيا فلسفيا , وأن الحياة الحديثة تقوم على العلم والتطبيق والمنفعة والعائد , وهذا جهل بالعلم والأخلاق معا , فالعلم يصف الواقع ويكتشف قوانين الكون ولكنه لا يرتقي بالحياة ولايصنع المستقبل فى حد ذاته , أما الأخلاق فهي استيعاب للواقع ثم ارتقاء فوقه سعيا نحو «مثل أعلى» يشحن إرادة الإنسان بطاقة هائلة تدفعه نحو حسن توظيف العلم والقفز نحو المستقبل وصياغة هذا المستقبل

كيف تسترد القيم والأخلاق المصرية والعربية الأصيلة

رؤيـة نفسـية

د. إبراهيم محمد المغازى
قسم علم النفس
جامعة بور سعيد

ليصبح أفضل من الحاضر والماضي. فالأخلاق تخلق مجالا من الحرية يتم فيه تصنيع الإرادة الإنسانية وتصنيع الجهد الإنساني وتعبئة طاقات النفس لكي تحقق ماتراه مثلا أعلى فى حياتها ولتتغلب عل العقبات التي تواجهها ببذل مزيد من الجهد وتحمل الكثير من الألم للوصول إلى الهدف . إذن فالعلم وحده لا يحقق نهضة الشعوب والعمل وحده لا يستطيع أن يحدد ملامح المستقبل أو يفجر طاقات البشر , ولكن القيم الخلقية العليا هي التي تفعل ذلك , إذ هي التي ترفض وضاعة الواقع وتواضعه وتهفو إلى سمو «المثل الأعلى» وتحرك الإنسان من موقعه الأدني إلى تشوقه الأعلى مستفيدا من وسائل العلم والعمل .

ولهذا تنهض الأمم بثلاثي : «الملهم والعالم والمنفذ» , فالملهم هو الزعيم الذي يحمل قيما أخلاقية عليا تشحن أبناء الوطن بالرغبة فى الحياة والارتقاء , والعالم يعطي وسائل وطرق تحقيق الغايات والأهداف , والمنفذ ينقل رؤية الملهم والعامل لأرض الواقع وبدون الأخلاق لانجد أنفسنا متحمسين للعمل أو بذل الجهد ولا نجد أنفسنا طموحين إلى معالي الأمور فتتهاوى هممنا وعزائمنا وتتقزم تطلعاتنا وتنحدر معاييرنا الشخصية والوطنية والإنسانية .

والضمير (الشخصي والعام) هو نتاج لمنظومة أخلاقية ترسخت عبر السنين وأصبحت تتطلب معايير عالية فى السلوك والعمل وتدفع نحو إتقان العمل والصدق والأمانة والوفاء والحب والبناء , وكلها قيم تضمن ازدهار الحياة وتطور المجتمع والسؤال الآن : بعد أن عرفنا أهمية الأخلاق فى بناء الفرد والمجتمع , كيف نحسن من منظومتنا الأخلاقية المتردية والمتدهورة ؟ .

أولا : لابد من تنبيه كل طوائف المجتمع وأفراده إلى أهمية الأخلاق فى التنمية والتطور والنهوض وصناعة الحياة وأنها ليست شيئا هلاميا أو ميتا فيزيقيا .

ثانيا : الاهتمام بروافع الأخلاق التي ذكرناها وهي العقل والعلم والدين والقانون والتقدير الاجتماعي والضمير , وذلك بالحفاظ على العقل من فيروسات التشوه الفكري والخرافى والاهتمام بالعلم الصحيح من خلال تعليم جيد , وتنقية الدين من الشوائب التي لحقت به وأبعدته عن جوهره الأصيل وغاياته العليا , وتفعيل القانون الذي يثبت ويؤكد القيم المستقيمة , وتصحيح التقدير الاجتماعي الذي يعزز القيم الأخلاقية الإيجابية ويطفئ ويضعف القيم الأخلاقية السلبية , وأخيرا رعاية الضمير الشخصي والعام فى مراحل النمو والتكوين من خلال التغذية الصحيحة للقانون الأخلاقي الأعمق فى جوهر النفس .

ثالثا : الاهتمام بالمؤسسات التي تزرع القيم الأخلاقية وترعاها وهي على سبيل الحصر :

١ – الأسرة : من خلال تمكينها من استعادة دورها التربوي وإعطاء القدوة فى الوالدين , وتفعيل الأخلاق فى الحياة الأسرية اليومية .

٢ – المدرسة : التي يكاد دورها التعليمي والتربوي أن ينهار تماما مع فلسفة تعليمية وتربوية خاطئة أدت إلى خلق نوع من التعليم الموازي أو التعليم البديل فى الدروس الخصوصية . ولم يتوقف الانهيار التعليمي على ضعف البث الأخلاقي الإيجابي بل امتد إلى بث أخلاقي سلبي من خلال نماذج مشوهة فى المجال المدرسي .

٣ – المؤسسة الدينية بكل تفصيلاتها وعناصرها التي عجزت عن توصيل الرسالة الأخلاقية السامية للأديان وكان عجزها دافعا لدخول فيروسات شبه دينية جاءت من هنا أو هناك فشوهت حالة التدين السائدة وجعلتها بعيدة كل البعد عن الأخلاق السوية , بل إن بعض الدعاة كانوا نماذج سيئة للأخلاق ففنتوا أتباعهم ومحبيهم .

٤ – القانون : الذي اضطرب تطبيقه وأصبح انتقائيا أحيانا ومحابيا أحيانا أخرى أو حتى غائبا أو ضعيفا أو مسيسا , بما جعل سلوك البشر يضطرب لأنه فقد هيبة القانون واستقامته التي تحقق ثبات القانون الأخلاقي واستقرار المعايير المجتمعية فيما يجوز ومالايجوز .

٥ – الإعلام : الذي يشكل فكر ووعي المجتمع وأصبح له تأثير هائل فى ذلك , ومع هذا للأسف الشديد فقد كانت النتيجة النهائية للبث الإعلامي تشويها للمنظومة الأخلاقية من خلال برامج «التوك شو» أو الأفلام أو الدراما , وهذا لاينفى جزءا تنويريا لا ينكر فى الأداء الإعلامي ولكنه يتوارى خلف حالات الهبوط الأخلاقي التي يبثها الإعلام بوعي أو بغير وعي من الكذب وتزييف الحقائق والدفع بنماذج غير أخلاقية على الشاشات وأمام الميكروفونات أو تقديم مواد تشوه التقدير الاجتماعي للسلوك بحجة أن هذا هو الواقع وأن الإعلام ليست وظيفته وعظية أو إرشادية . فالإعلام بصورته الحالية يركز على الانحدار الأخلاقي ويؤكده ويرسخه ويجعله نموذجا للأجيال المتأثرة والمبهورة بالرسالة الإعلامية .

١) نماذج التعلم عن طريق (السير الذاتية لنجوم المجتمع) فى جميع مجالات الحياة.
٢) القصة ومسرحة المناهج
٣) برامج تعديل السلوك القيمي لعلماء النفس والاجتماع.
٤) استخدام أنواع اللعب والألعاب المختلفة.
٥) إعادة مكانة القدوة الصالحة داخل الأسرة المصرية أو العربية مرة أخرى.
٦) التوازن بين الجانب المادي والمعنوي والنفسي داخل الشخصية المصرية والعربية دون تغليب جانب على آخر.
٧) الاعتماد على التكنولوجيا إلى حد ما .
٨) الحذر من العولمة السيئة .
٩) مشاهدة الأطفال للبرامج والأفلام التي تحمل القيم والأخلاق الحسنة والصالحة.
١٠) نشر ثقافة القيم والأخلاق الحميدة فى المجتمع المصري والعربي، وذلك عن طريق الندوات وورش العمل والبرامج الإذاعية والتليفزيونية وأفلام التسجيل الخاصة بالقيم والموجهة للأطفال.
١١) تدريس مادة القيم والأخلاق من خلال مراحل التعليم المختلفة من الحضانة وحتى الجامعة.
١٢) عمل مسابقات وزيارات ترفيهية وعمرة وحج.
١٣) اشتراك رجال الأعمال والمؤسسات الخيرية فى عمل مسابقات لتعزيز وتثبيت القيم والمثل العليا والأخلاق لدى عامة المجتمع المصري والعربي.
١٤) عمل مجلس أعلى للقيم والأخلاق المصرية يضم رجال الدين الإسلامي والمسيحي يكون مسئولا عن ترسيخ القيم والأخلاق.
١٥) عمل برنامج إذاعي وتليفزيوني قيمي أخلاقي أسبوعي.